حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة ألقاها الأستاذ المحقّق

السيد محمد الخضر

في الحفلة التي أقامتها جمعية تعاون جاليات افريقية الشمالية

مساء الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٣

القاهرة

١٣٤٣

عُنيت بنشرِه

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

شارع خيرت رقم ٤٠



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فضل الانسان على كثير ممن خلق تفضيلا ، وجعل تفاضلهم بالتفقه فى حقائق الشريعة والغوص على أسرار الكائنات ولن تجد لسنته تبديلا . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعى الى سبيل ربه بالحكمة ، ثم الرضى عن آله وصحبه الذين ارتقوا بسكان هذه البسيطة الى أوج السعادة فكانوا خير امة

أما بعد فقد قرر مجلس ادارة « جمعية تعاون جاليات افريقية الشمالية » القيام بمحاضرات علمية اجتماعية ، ووقع الاختيار على أن يكون موضوع المحاضرة المقترح عليَّ القاؤها مساء يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٣ (حياة الفيلسوف أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون) ونموذجاً من فلسفته الاجتماعية . فرأيت أن أفتتح المحاضرة بمبدأ نشأته وأتنقل فى المهم من أطوار حياته مراعياً ترتيبها الطبيعى ، ثم أسوق جملة من فلسفته التى طويت صحائفها فى خزائن كتبنا أحقاباً ودرسها الاجنبى ثم ضرب لها فى القارة الاروبية أمثلة تشهد بصحتها .

وعلى الله قصد السبيل

مقدمة

أيها السادة الكرام ،

تأسست هذه الجمعية لتنهض بجاليات افريقية الشمالية حتى يسيروا مع اخوانهم المصريين جنباً لجنب : يسايرونهم في أفكارهم ، في آدابهم ، في معارفهم ، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية الراقية . وكذلك يجب على كل جالية تعيش بين قوم ناهضين . وكذلك يجب على كل جالية تعيش في بِيئة هي أوسع من أوطانها حريّةً واحتمالا للمشروعات الاصلاحية

وللدعوة الى المنافسة في الخير ، والمسابقة في حلبة الشرف والسعادة ، طرق شتى ؛ ومن أقربها مأخذاً ، وأبلغها أثراً ، إلقاء محاضرات تتمثل فيها سيَر رجال أدركوا بصفاء ألمعيتهم وكبر هممهم مكانة راسخة ، وسمعة فائقة . وقد بدا لنا أن نفتتح محاضراتنا بذكرَى الفيلسوف الاجتماعي أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون

نسب ابن خلدون

هو وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ابن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون الحضرمي [١] . ويتصل هذا النسب الى وائل بن حجر الصحابي الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه وأجلسه عليه ودعا له

ذكر ابن خلدون نسبه على هذا النسق وقال : لا أذكر من نسبي الى خلدون غير هؤلاء العشرة

دخول سلفه الى الاندلس

كان خلدون المذكور قدم من المشرق في رهط من قومه أهل حضرموت ونزل إشبيلية ، وهي حمص التي يقول فيها صاحب مرثية الاندلس :

وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ونهرُها العذبُ فيّاضٌ وملآن

تفرّع آل خلدون في إشبيليه ، وكانت لهم فيها زعامة ورياسة .

(١) خلدون بفتح أوله كما نص عليه صاحب الحلل السندسية (مخطوط) ، وصاحب نيل الابتهاج (ص ١٦٩ هامش الديباج المذهب) . وأصل اسمه خالد وعرف بخلدون كما جاء في تاريخ المترجم به (٧ : ٣٨٠)

ثم رحل جده الحسن عقب فتنة خفقت ريحها في تلك البلاد فنزل سبتة ، ثم ارخى زمام مطيته متوجهاً الى مدينة (عنابة) لصلة كانت بين بعض أسلافه وبين صاحبها الامير زكرياء فلقيه الامير باحتفاء ، وأدخله في سلك رجال دولته ، وجرى ابنه محمدٌ على سَنَنه في خدمة الدولة وأدرك ما ناله والده من وجاهة واقبال . وانتهى أمر ابنه محمد ـ الذي هو الجد الادنى للفيلسوف ابن خلدون ـ الى السكنى بمدينة (تونس) والانتظام في هيأة الدولة ، وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من مدينة تونس يستعمله عليها ، ولكن ابنه محمداً ـ وهو والد الفيلسوف المتحدّث عن حياته ـ عدل عن مسلك السياسة وخدمة الدولة وآثر مدارسة العلم ومجالسة الادباء ، فأصبح معدوداً في زمرة العلماء ، ومشهودا له بالتقدم في فن الادب

نشأة ابن خلدون في تونس

في هذا البيت ـ الذي تتقلب رجاله في أطوار خطرة ، ثم بسط فيه العلم أشعةً باهرة ـ ولد أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في غرة رمضان سنة ٧٣٢ فكانت نشأة ابن خلدون في اسرة امتطت ذرى الرياسة ، وخفق فيها روح العلم والادب ، مما ساعد ذكاءه الفطري على أن يشتعل بشدة ، وجعل نفسه الزكية بمقربة من الهمم الكبيرة

نشأ ابن خلدون وكانت رياض العلم في مدينة تونس زاهية ، وسوق الادب نافقه . فاستظهر بالقرآن ، وتلقى فن الادب عن والده ثم أقبل يجتني ثمار العلوم بشغف ، ويتردّد على مجالسة العلماء الراسخين ـ مثل قاضي القضاة محمد بن عبد السلام ، والرئيس أبي محمد الحضرمي ، والعلامة الابلى . ولم يكد يستوفي سن العشرين حتى تجلت عبقريته ، واستدعاه أبو محمد بن تافراكين المستبد وقتئذ الى كتابة العلامة عن السلطان أبي اسحاق وهي « الحمد لله والشكر لله » تكتب بالقلم الغليظ مابين البسملة ومابعدها من مخاطبة أو مرسوم ، وهذا مبدأ دخول ابن خلدون في حياته السياسية

عزم على الارتحال

تولى هذا العمل وهو يطوي ضميره على الرحلة من افريقية : لوحشة أثارها في نفسه ذهاب معظم شيوخه ، وانطواء مجالسَ كانت أنهارُ علومها دافقة ، وقطوف آدابها دانية . ويمكنك من هاهنا أن تعرف لابن خلدون وهو في شرخ شبابه مبدأ من مبادىء الفطرة السليمة ، والهمة الشامخة ، وهو الاستخفاف بالمقام الوجيه

الدى الدولة ، وإيثار ما فيه كمال نفسي ولذة روحية على مظاهر الابهة ومواطن الراحة والنعيم

رحلته الى بجاية

لبث ابن خلدون بعد تقليده رسم العلامة أمداً غير بعيد حتى أمكنته الفرصة من أمنيته ، وغادر تونس سنة ٧٥٣ الى قفصة ثم الى بسكرة ونزل فيها ضيفا مكرماً لدى صاحبها يوسف بن مزني

ثم خرج منها قاصدا السلطان أبا عنان وهو يومئذ بتلمسان، فلقيه على الطريق ابن ابي عمرو صاحب بجاية آيباً من تلمسان ، فصرفه عن قصد أبي عنان ، وحمله على المسير معه الى بجاية ليغتبط بصحبته ، وتزدهي بمثل ابن خلدون أيامُ دولته

ابن خلدون عند سلطان فاس

لم يكد ابن خلدون يقضي في كنف صاحب بجاية برهة حتى طار صيته ،وعبق ذكره في حضرة السلطان أبي عنان ، وقد جمل هذا السلطان بعد عوده الى فاس يؤلف من جلة العلماء مجلساً حافلاً ، فاستدعاه من بجاية سنة ٧٥٥ فأكمل به نظام مجلسه العلمي ، واختاره للكتابة والتوقيع بين يديه . قال ابن خلدون « فتحملت هذا

العمل على كره مني ، اذ كنت لم أعهد مثله لسلفي »

اتهامه بالمؤامرة على ما يغضب السلطان

حظي ابن خلدون لدى أبي عنان وارتقى في دولته مكاناً علياً ، فأخذ حَرُّ الحسد يلفح قلوب بعض منافسيه ، فأخذوا يبيّتون له المكايد ، وينصبون له شرك السعاية ، حتى استطاعوا أن يدخلوا الى افساد قلب السلطان عليه من باب السياسة اذْ رموه بالدخول في مؤامرة مع الامير محمد صاحب بجاية . ولتهمة الائتمار على نقض شيء مما تبنيه يد الدولة سهام لا تكاد تخسأ ، اذا لم تصب المقاتل أوهت العظم وقلقلت الحشا وسلبت الاجفان نومتها الهادئة ، وبالاحرى حيث لم تكن قضاياها مما يوكل الى اجتهاد محكمة عادلة ، وانما ينفرد بسماع بلاغها ويستبد بتقدير عقوبتها أحد الخصمين الذي هو الرئيس الاعلى

ابن خلدون في السجن

انطلت تلك التهمة على فكر ابى عنان فقبض على ابن خلدون والامير محمد وزجهما في السجن . وكانت هذه النكبة أول ما لقيه ابن خلدون من بلاء السياسة وأيقن بها أن إقبال الدولة سرعان ما ينقلب إدباراً وان عزاً تبنيه للرجل صباحا قد يأتي عليه

المساء ، فاذا هو الدرك الاسفل من الهوان

ثم ان السلطان أطلق سبيل الامير محمد ، وترك ابن خلدون يقاسي شدة الحبس ويتجرّع مرارة المحنة ، حتى التجأ في استعطافه وجلب مرضاته الى وسيلة الشعر والمديح وخاطبه بالقصيدة التي يقول في طالعها :

على أيّ حال لليالي أعاتبُ وأيٌ صروف للزمان أغالبُ

وقد تنجح شفاعة الشعر لدى الحاكم المطلق وتأتي بالاثر الذي تذهب الحجج الساطعة دونه عبثا . وما كان من أبي عنان إلا أن هش للقصيدة ـ وكان وقتئذ بتلمسان ـ ووعد بالافراج عن ابن خلدون عند حلوله بحاضرة فاس . ولكنه لم يلبث بعد إيابه الى الحضرة الا خمس ليالي فطرقه الوجع ولقي أجله قبل ان يفي بوعده لابن خلدون

خروجه من السجن وولايته كتابة السر وخطة المظالم

وبعد مهلك السلطان بادر الوزير الحسن بن عمر الى اطلاق سراح ابن خلدون من الاعتقال ، وخلع عليه من الاكرام بُرداً ضافيا وأعاد اليه ما كان يتقلده من اعمال الدولة

وعند ما استلم السلطان أبو سالم زمام الملك استعمل ابن خلدون

على كتابة سره وألقى اليه الامر في انشاء مخاطباته ، فعدل بالانشاء عن طريقة التسجيع وأخذ به في طريق الترسل ـ ولم يكن في كتّاب الدولة لذلك العهد من يجيد صناعة الترسل ـ فكانت هذه المزية من أسباب تفوقه وإحرازه قصب السبق في حلبة البيان والتحرير

ولم تزل مكانته لدى ابى سالم راضية ، ولم تزحزحه سعاية ابن مرزوق ـ التي تناولت أكثر رجال الدولة ـ عما كان يتولاه من كتابة السر وانشاء المخاطبات ، بل لم تقف في سبيل تقليده خطةَ المظالم آخر عهد الدولة ، حتى ثار الوزير عمر بن عبد الله على السلطان ونبذ الناسُ بيعته من أعناقهم

ابن خلدون في دولة الوزير عمر بن عبد الله

وقع زمام الحكم في قبضة الوزير عمر بن عبد الله وكانت بينه وبين ابن خلدون قبل توليه أمر الدولة مودّة وصحبة ، فأقره على ما كان يتولاه من العمل وزاد في جرايته . وكان ابن خلدون يطمح بطغيان الشباب الى غاية اسمى مما يتولى من الاعمال ، وفي أمله ان عناية صديقه المقتدر لا تتريث في اسعافه ببغيته . ولما لاح له ان الوزير أخل بعهد الصحبة أخذه الاستياء من تقصيره الى ان انقطع عن دار السلطان وهجرها إدلالاً بسابق المودّة ، ولكن منصب الوزارة

انسى عمر بن عبد الله أن من أساليب عتب الاصدقاء وتذ كيرهم بحق أغمضوا عنه هجرَهم من غير جَفاء ، وصرف القدم عن زيارتهم لا عن ملل ؛ ولم يشأ منصبُ الوزارة إلا أن يفهمه أن تقاعد ابن خلدون عن مقر السلطان زَلةٌ جرَّه اليها تعاظمه وقلة وفائه بما يستحق مقام الرياسة العليا من إكبار وخضوع ، فبدلا من أن يرعى الوزير مقام الصداقة ويجعله أرفع مكانا وأقوى سلطانا من مقام الرياسة ؛ أخذته نخوة السلطة ، وقابل هجر العتاب والادلال بهجر الجفاء والتقاطع

ولما رأى ابن خلدون منه التنكر والاصرار على الاعراض عنه استأذنه في العود الى إفريقية ، فلم يجز له ذلك ، وشدد في منعه ، حتى دخل عليه يوم عيد الفطر وخاطبه بقصيدة يقول في طالعها :

هنيئا لعيد لاعداه قبولُ ... وبشرى لعيد أنت فيه منيلُ

فحلت هذه القصيدة عقدة من إبائه ، واذن له في السفر ، على شرط ان لا يتخذ سبيله الى تلمسان ، كراهة ان يتصل بصاحبها أبي حمو ويشتد به أزر دولته

رحلة ابن خلدون الى الاندلس

احتمل ابن خلدون هذا الشرط ، وولَّى وجهه شطر الاندلس وافداً على السلطان ابن الاحمر بغرناطة . ولما بات بمقربة منها وافته

من وزيرها لسان الدين بن الخطيب رسالة يهنئه فيها بالقدوم، ويعبر بها عن شدة ابتهاجه للقياه ووضع في صدر الرسالة أبياتا ـ على سنة من يجيد صناعتي الشعر والنثر ـ وهي :

على الطائر الميمون والرحب والسهلِ
حللتَ حلول الغيث في البلد المحلِ
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه
من الشيخ والطفل المعصب والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطةٌ
تنسّي اغتباطي بالشبيبة والأهل

ارسال سفيرا الى ملك الاسبان

نزل ابن خلدون من السلطان ابن الاحمر منزلة الاحتفاء والانعام ، وندبه للسفارة بينه وبين ملك الاسبان ؛ فعرف الملك قيمته وأُعجب بكماله ومقدرته ، حتى دعاه الى الاقامة معه بدار ملكه (إشبيلية) ، ملتزماً له بان يرد عليه ما كان لسلفه من أملاك ؛ فرفض ابن خلدون هذه الدعوة ، ولم يكن ممن يشغفه المال حباً فيؤثره على المقام بين أُمته التي يشرف بشرفها وينحط شأنه بانحطاط سمعتها

تنكر وزير الاندلس له

حاز ابن خلدون لدى ابن الاحمر رعاية ضافية فجاش الحسد فى نفوس بعض معاديه وطفقوا يسرون لابن الخطيب ما يزلزل ركن الصداقة بينه وبين ابن خلدون حتى اغبر صدره وبدا عليه انقباض احسّ به ابن خلدون ، فجمل وجه البلاد فى عينه قاتماً ، ولم يسعه بعد تنكر ابن الخطيب وهو القابض على مقاليد الدولة إلا أن يعتزم على الرحلة ، واتفق أن وافته كتب من أبى عبد الله صاحب بجاية يستدعيه للقدوم عليه فاتخذها ذريعة لاستئذان السلطان فى الانصراف الى افريقية دون أن يطلعه على ما كان بينه وبين ابن الخطيب فامتعض فى مبدإ الامر ضنًّا بفراقه ثم ادّكر أن للحنين الى الوطن حكما لا يغالب فاذن له بالظعن واصدر فى تشييعه مرسوما من املاء ابن الخطيب ، يشهد له فيه برفعة القدر واستقامة السيرة والتحقيق فى العلم ويوصي قواد الدولة وأعوانها برعايته واسعافه فى كل حال

سفره الثانى الى بجاية

سافر الى بجاية سنة ٧٦٦ واقيمت له يوم مقدمه حفلة مشهودة فاركب السلطان خاصته لاستقباله وهرع اليه أهل البلد بنفوس متعطشة الى لقائه وانهالوا يمسحون اعطافه ويلثمون يده . فاجتمع له فى هذا

الاحتفال اقبال الدولة وانعطاف الامة ، وهما لا يجتمعان لشخص بانتظام إلا حيث تكون الدولة رشيدة ، واذا كانت الدولة قد تقبل على غير عظيم فان الامة لا تخلع عطفها واجلالها الا على من تقدر عظمته وتثق باخلاصه

ولايته الحجابة لسلطانه بجاية

تقلد ليوم خلا من قدومه منصب الحجابة ، وهي لدى دول المغرب : الاستقلال بادارة شؤون الملك ، والانفراد بالوساطة بين السلطان وبين أهل دولته . بيد أنه استلم زمام السياسة بعد ان نشأت بين السلطان أبي عبد الله وابن عمه ابي العباس صاحب قسنطينة فتنة نفدت التدابير دون اطفائها ، وما برحت تتأجج الى ان كانت عاقبتها قتل ابي عبد الله واستيلاء أبي العباس على بجاية

خرج ابن خلدون باسطاً يد الطاعة الى أبي العباس ولقي منه احتفاء وانعاماً وسرعان ما انكفأت عقارب السعاية به تدب حول السلطان فلم ينشب ان استأذنه في الانصراف فأجاب طلبه بعد تمنع وارتحل حتى عرج على بسكرة لصحبة كانت بينه وبين أميرها احمد بن يوسف بن مزنى

انصرافه الى العلم

وما كان يمتحن به ويقاسيه من مشاكسة المنافسين له فى مقاعد الرياسة ونصبهم حبائل السعاية به، ثم تنكر السلطان له بعد الرعاية والاقبال صرف قلبه عن التعلق بأسباب السياسة وجعله يفرغ همته في تحقيق العلوم ودراستها . ومن أجل هـذا قعد عن السفر الى أبي حمو صاحب تلمسان حين استدعاه ليقلده الحجابة وكتابة العلامة ووجه اليه أخاه يحيي ليقوم بعمل هذه الوظيفة مكانه

المراسلة بينه وبين الوزير ابن الخطيب

بعث اليه الوزير ابن الخطيب من غرناطة برسائل يشكو فيهـا مضض النوى ويتلهف على عهد اللقاء . وقلوب الاصدقاء قلما تتصدع بحزازات الوشاية وتعود الى عنفوان ودها الصميم ، ولـكن الرقة الدافقة على ذوق ابن الخطيب ، والادب المنسجم فى مزاج خلقه الرصين ، ذهبا بأثر ما سـعى به اليه قوم لا يفقهون، ونهضا به الى تأكيد صداقة انتظمت بينه وبين رجل يدانيه علما وأدباً ويضاهيه في طرق التفكير والعمل لرقي نظام الاجتماع

واذا كانت الرسائل مثالا لمنهج الرجلين فى المحاورة ساعات اللقاء فان هذه المراسلة تنبئك ان المجالس التى كانت تعقد بين هذين

الوزيرين الخطيرين لم تكن مضمار علم وأدب فقط بل كانت ممتعة بالنظر فى الشؤون السياسية الداخلية والخارجية ، فقد أتى ابن الخطيب فى بعض هذه الرسائل على تفاصيل من أحوال الدولة بغرناطة وألمّ فيها بانباء عن دولة الاسبان فى اشبيلية . وكذلك تجد ابن خلدون تعرّض فى الجواب عن تلك الكتب لحوادث دول شتى : فنسق فيها قسطا من الحديث عن شؤون دول تونس والجزائر والمغرب الاقصى والحجازومصر. ولو أن علماء الاسلام أخذوا فىهذاالسبيل أينما كانوا ، ومدوا جانباً من عنايتهم الى الاطلاع على تصاريف الدول ومجارى سياستها لبلغوا منتهى السؤدد وبرءوا من تبعة وقوع الشعوب الاسلامية فى هذا البلاء المبين

مساعيه السياسية وهو فى بسكرة

أقام ابن خلدون في بسكرة مقبلا على دراسة العلم ولم ينكث يده مع ذلك من التدخل في شؤون الدولة فكان يشايع أبا حمو صاحب تلمسان حين نهض يجلب بخيله ورجله على بجاية ، فكان وسيلةً الى توثيق عرا الصلة بينه وبين السلطان أبي اسحاق صاحب تونس وحمل بعض القبائل على مناصرته حتى سار اليه بطائفة من قبيل الذواودة والتقى به فى البطحاء ثم قفل معه راجعا الى تلمسان اذ بلغ اباحمو

ان السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الاقصى يتحفز للوثوب على تلمسان . ولما اقتربت ساعة استيلائه عليها وأخذ أبو حمو في أهبة الانجلاء عنها الى الصحراء اعتزم ابن خلدون على الارتحال الى الاندلس وحمّله ابو حمو رسالة الى ابن الاحمر صاحب غرناطة فاتصل نبأ سفره بالسلطان عبد العزيز ونمى اليه انه يحمل وديعة الى ابن الاحمر فانفذ اليه سرية اعترضت سبيله فلم تلق عنده ما يحقق هذه التهمة وانقلبت به الى السلطان فلقيه حوالي تلمسان فقضى ليلته فى اعتقال وفى الغد اطلق سبيله فانصرف الى رباط الشيخ أبي مدين ونزل بجواره على قصد التفرغ للعلم ونثر درره الشائقة بين يدي طلابه

استرعاؤه الى فاس

ولم يزل متمتعا بحياة علمية خالصة حتى استدعاه السلطان عبد العزيز وأوعز اليه فى الخروج الى بلاد رياح ليجمعهم على طاعته ومناصرته فانبعث يعمل فى هذا السبيل بكلمة نافذة ودعاية ناجحة الى ان قضى المأرب وبلغ الغاية المنشودة ، وكان يسعى الى هذه المهمة السياسية وهو مقيم ببسكرة فى جوار أميرها احمد بن يوسف بن مزنى الذى هو صاحب زمام رياح ، وما راع ابنَ خلدون الا ان أخذ حساده ينفثون سموم الوشاية فى اذن احمد بن مزنى فهاجوا غيرته

وأوغروا صدره حتى تنفس بالشكوى منه الى صاحب شورى السلطان وترمار بن عريف ورفع صاحب الشورى هذه الشكوى الى السلطان ، فما كان من نظره الاان استدعى ابن خلدون الى حاضرة فاس ، فخرج بأهله وولده. ولقيه فى الطريق نعي السلطان وتولية ابنه الصبي ابى بكر السعيد في كفالة الوزير أبى بكر بن غازي فدخل فاس وكان له مع الوزير سابق صحبة فأدرّ عليه من معصرات بره وكرامته فوق مايحتسب ، وظل عاكفا على التدريس صارفاً همته الى الوجهة العلمية الى أن ظهر السلطان احمد بن أبى سالم على الوزير ابي بكر بن غازي واجتذب مقاليد الامر من يده ، ولم يستقر به الحال حتى قام وزيره محمد بن عثمان يدخل عليه الريبة من جانب ابن خلدون ويغريه بالقبض عليه. وما هذا الوزير بأول من ازدهت به الرياسة وتطوحت به في غرور حتى عمى عليه أن لأعاظم الرجال كابن خلدون تاريخاً باقياً وصحائف لا تغادر صغيرة ولا كبيرة من مجاملة أهل عصره له أو اساءتهم الا أحصتها

عودته الى الاندلس سنة ٧٧٦

قبض عليه السلطان ابن أبى سالم وسرعان ما نهض الى خلاصه الامير عبد الرحمن الذي شارك السلطان في حرب الوزير أبى غازي

واتفق معه على أن يستقل بولاية مراكش وأعمالها ولم يطمئن به المقام بعد أن رأى من تنكر السلطان وسوء طوية وزيره ما رأى ، فابتغى الوسيلة الى إذن السلطان له بالانصراف الى الاندلس ليتفرغ للعلم ومدارسته في ظل دولة ابن الاحمر الذي أولاه في رحلته الاولى سابغ الكرامة والانعام ، ولم يظفر بالجواز الا بعد تسويف وعلى رغم من وزيره ورجال دولته

دخل الأندلس سنة ٧٧٦ فجرى السلطان على عادته من بسط يد الاكرام وانزاله منزلة الاحتفاء والرعاية الى أن وفد على غرناطة مسعود بن ماسي من حاضرة فاس وأبلغ السلطان باغراء من رجال دولتها أن ابن خلدون كان يبذل مساعيه وجاهه في خلاص لسان الدين بن الخطيب[1] ، فانقلب عطف السلطان عليه جفاء وأنسه به وحشة واجلاه الى العدوة من بلاد المغرب الأقصى

وموضع العبرة في هذه الواقعة انك تقارن بين عودتيه من الاندلس فتجده في المرة الاولى قفل من غرناطة والسلطان يبسط

(١) كان لسان الدين بن الخطيب بفضل ماله من التبحر في العلم والادب والخبرة بمذاهب السياسة قبض على زمام دولة ابن الاحمر وانفرد بالتصرف في شؤونها فشجيت به بطانة السلطان وحاشيته وانسابوا الى السعاية به من كل حدب حتى احس بانها اخذت من السلطان مأخذ القبول فاحتال للتخلص من الاندلس والتجأ الى السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الاقصى وبقي في ظل رعايته ثم في حماية

له يد المجاملة ويودعه بقلب يأسف لفراقه ، ثم هو متوجه نحو بجاية والدولة متأهبة لاستقباله باجمل ما يتصور من مظاهر الاحتفاء . وتراه في هذه المرة انصرف عنها والسلطان يكره اقامته وتطوى عنه بساط انسه ، خرج وهو لا يدري أين يلقي عصا التسيار : هذه دولة الاندلس تنفيه من أرضها ، وتلك دولة المغرب الاقصى تلحظه بعين الحنق وترمى من ورائه بسهام الكيد والاذى ، وهذا ابو حمو صاحب تلمسان لم يزل ينقم عليه مشايعته للسلطان عبد العزيز وسعيه في صرف وجوه العرب عنه يوم كان طريدا فى الصحراء . بيد ان ابا حمو كان على روية لا يفوتها ان الاخذ فى معاملة رجل خطير كابن خلدون بالرفق والاناة انما توضع فى حساب الحسنات التى ينوه بها التاريخ ويرتقى بها شأن دولته فسمح له بدخول تلمسان فجاءها وقد ذاق من صروف السياسة عذاب الهون فما كان الا ان تجرد للقراءة ولم يشغل وقته بسوى المذاكرة فى العلم ودراسته

الوزير ابي بكر بن غازى من بعده . ولما استولى احمد بن ابي سالم على حاضرة فاس حسبما قصصناه فى المحاضرة وكان استيلاؤه عليها بمساعدة وموالاة من السلطان ابن الاحمر قام سليمان بن داود يغري السلطان بالقبض عليه فاودعوه السجن وائتمروا على قتله بدعوى انه وقعت له كلمات فى كتاب المحبة تنطق بزندقته . ثم اوعز سليمان بن داود الى بعض الاوغاد بقتله فهجموا عليه ليلا وقتلوه خنقا فى محبسه

وقد يكون انحراف الدولة عن النابغة أو اضطهادها له أشد داعية الى بذله كل ما يملك من الجد والالمعية فى توسيع دائرة معارفه أو الحذق فى صناعة التأليف أو الاستنباط ، فان الكدر الذى قد يثيره تغابيها عن مكانه أو بخسها من قيمته انما يكشفه ارتياح النفس وتمتعها باستطلاع حقائق العلوم التى هى اصفى لذة وابقى سؤددا من نيل الحظوة والقرب من مجالس الامراء

تصنيف ابن خلدون تاريخه ومقدمته

ما برح ابن خلدون منقطعاً لبث العلم حتى بدا لابي حمو أن يبعثه سفيراً الى الذواودة ليراوضهم الى طاعته ويجمعهم على ولائه . فلبى طلبه في الظاهر وخرج وهو يسر في نفسه أن لا يعمل لهذا السبيل بعلة أنه أصبح يعز عليه بذل شيء من أوقاته في غير الوجهة العلمية . ولعله سئم التدخل في السياسة التى قد تلتوي به مع اهواء الامراء وتحمله على أن يسعى في استنجاد القبيلة لمن كان يغريها عليه

ولما وصل الى البطحاء ولى وجهه عن ناحية الذواودة جانباً وثنى عنانه الى أولاد عريف ، فأنزلوه بقلعة أولاد سلامة ، وأقام بينهم اربع سنين في جو هاديء ، وبيئة لا تجيش فيها مراجل الحسد ولا تنفث فيها الوشاية سما ناقعا. وفي هذه السنين ـ التي كانت

مهبط السكينة وصفاء الفكر وارتياح الضمير — شرع في تأليف تاريخه الفائق ، ولذلك الحين أتم مقدمته على نسجها الحكيم وتحقيقها البديع

عودته الى وطنه

سلّ يده من كل شاغل ، وألقم فكره ندي الاستنتاج والتفقه في المقاصد العلمية والشؤون العمرانية حتى بلغ في مجالها شأوا لا يشق غباره ، فتاقت نفسه الى زيادة التوغل في أسرار العلم والاستفادة من كتب لا تنالها الايدي الا في الحواضر ؛ فراسل صاحب تونس أبا العباس بالعودة الى تونس التي هي مسقط رأسه ومسحب ذيل شبابه ومجرى جياد أنسه ، فما تريث أن طلع عليه جواب السلطان يأذن له بالقدوم ويحثه عليه ، فانبرى يطوي الفيافي حتى أوى الى ظل عنايته وأنزله منزلة المغتبط بسابغات عزه ومظاهر كرامته

ظن ابن خلدون — مذ حط رحله بين قومه وسحب رداء العز في وطنه — أن الزمان صالحه بيد المصافاة وان الحوادث أصبحت تهاب أن تغشى ساحته ، فاذا تقريب السلطان له واستخلاصه جليساً يضرم في قلوب فريق من الناس نار الغيرة والحسد فلم يتمالكوا أن باتوا ينصبون له حبائل الوشاية ويهمسون في أذن السلطان بما يوغر صدره عليه . ومما تعلقوا به في أسباب الكيد به تخليه عن صوغ الشعر في

مديح السلطان وزعموا لديه أنه لم يُعن بمديحه كما عني بمديح سلاطين المغرب والاندلس استخفافا بمقامه وكفراناً لنعمته

وقد ضل هؤلاء عن سواء السبيل: فان العالم الاديب قد يهفو به نزق الشباب أو ينساق بحكم الضرورة الى مديح بعض الرؤساء حتى اذا بلغ في العلم أشده وخلع عليه التقدم في السن حلة السكينة والوقار عافت نفسه ذلك الفن المزري من الشعر وجمدت قريحته دون أن تنطف فيه بقطرة. فيجب على صاحب الدولة الرشيدة أن يكون على همة اسمى من أن تتشوف الى سفاسف الامور وأطهر من أن ترضى للذين أوتوا الحكمة أن يلقوا بأنفسهم في حضيض الملق والاستعطاف بل الامجد لذكره والادعى لحمده أن يكون اكرام العلماء فى نظره حقاً تقتضيه فضيلة العلم بنفسها

تقديم تاريخه الى صاحب تونس

فجاءه صديق له ـ كان أحد بطانة أولئك السعاة ـ بما يكيدونه به تحت ستار وكان قد اعتزم على ان يقدم للسلطان نسخة مما كمل من تاريخه. فانتهز الفرصة وأنشده ساعة اهدائه الكتاب قصيدة امتدحها بذكر سيره وفتوحاته ونسج في ذيلها الاعتذار عن انتحال الشعر بأسلوب بليغ. ويقول في هذا الاعتذار:

و اليكها مني على خجل بها عذراء قد حليت بكل نفيس
لولا عنايتك التي أوليتني ما كنت أعنى بعدها بطروس
والله ما أبقت ممارسة النوى مني سوى رسم امرّ دريس
أخنى الزمان عليّ في الادب الذي دارسته بمجامع ودروس
فسطا على فرعي و روّع مأمني واجتث من دوح النشاط غروسي
ورضاك رحمتي التي أعتدها تحيي مُنى نفسي و تذهب بوسي

ابن خلدون في مصر

وما برحوا يركبون في السعاية به كل فن حتى شاهد أثرها في معاملة السلطان له فرام التخلص من مثار هذه الفتنة وابتغى الوسيلة الى ذلك باستئذان السلطان في السفر لأداء فريضة الحج ، وقدم الاسكندرية لمضيّ عشر ليال من جلوس الملك الظاهر على عرش الملك. ثم انتقل الى القاهرة وتصدى للتدريس بالجامع الازهر واتصل بالسلطان فأكرم مثواه وأعاد ليل غربته ووحشته صباح أنس وطمأنينة . وأولاه وظيفة التدريس بمدرسة القمحة ثم قلده خطة قضاء المالكية على وفق النظام المتبع لذلك العهد من اقامة قضاة على عدد المذاهب الاربعة يلقب كل واحد منهم بقاضي القضاة فتحرى بهذه الخطة صراطاً سويا ولم يدخر وسعا في العمل على اصلاحها

وتجديد مادرس من معالمها ولم تألف العامة الصرامة في اقامة الحق على وجهه الصريح ولم يعتد ذوو الجاه والشوكة من رجال الدولة اغلاق باب الشفاعة والتوسل في وجوههم. فتعاقد الفريقان على التظلم منه والتهويش عليه لدى السلطان بدعوى انه غير خبير بالتقاليد المعبر عنها بالمصطلح. وانضم الى هذه المحنة نكبته في أهله وولده اذ ابحروا من تونس ليلتحقوا به فغشيتهم ريح عاصف وهلكوا فى البحر غرقا

وقف السلطان تجاه تلك الشكوى موقف الحكمة فجمع بين الحزم في السياسة وكرم الهمة، ففصله عن الخطة تهدئة لثائرة الجمهور واستمر على مواصلته بالرعاية والانعام وفاء بحق العلم واقتناصاً لمفاخر يزدهي بها وجه تاريخه المجيد

ابن خلدون والوزير ابن زمرك

وبعد أن قضى ثلاث سنين عاكفاً على التدريس والتحرير خرج لقضاء فريضة الحج سنة ٧٨٩ وقفل راجعا الى القاهرة واتصل حين بلغ الينبع بكتاب يحتوي على شعر ونثر راسله به أبو عبد الله ابن زمرك وزير السلطان ابن الاحمر صاحب غرناطة، ولجودة نظمه وصفاء ديباجته بحيث يسوغ لنقاد الادب ان يضعوه بالمكان

الاسمى من الشعر ويقضوا له بالسبق فى حلبة البلاغة رأينا من اللائق بهذه المحاضرة أن نحلي جيدها بطوق من فرائده ، ومما يقول في أوائل هذه القصيدة :

ويا زاجري الاظعان وهي ضوامر دعوها ترد هيماً عطاشاً على نجد
ولا تنشقوا الانفاس منها مع الصَّبا فان زفير الشوق من مثلها يعدي
براها الهوى بريَ القداح وحطها حزون على صفح من القفر ممتد
عجبت لهـا أنى تجاذبني الهوى وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
لئن شاقها بين العذيب وبارق مياه بفيء الظل للبان والرند
فما شاقني الا بدور خـدورها وقد لحن يوم النفر في قضب ملد
وكم صارم قد سل من لحظ أحور وكم ذابل قـد هز في ناعم القـد
خذوا الحذر من سكان رامة انهـا ضعيفات كسر اللحظ تفتك بالاسد

واسترسل في هذا الطرز البديع والنسيب الساحر حتى تخلص الى خطاب ابن خلدون بقوله :

اليك ـ أبا زيد ـ شـكاة رفعتها وما أنت من عمرو لدي ولا زيد
بعيشك خبرني ولا زلت مفضلا أعندك من شوق كمثل الذي عندي
فـكم ثار بي شوق اليك مبرح فظلت يد الاشواق تقدح من زندي
يقابلني منك الصباح بوجنـة حكى شفقا فيه الحياء الذي تبدى

وتوهمني الشمس المنيرة غرة بوجهك صان الله وجهك عن رد
محياك أجلى في العيون من الضحى وذكرك أحلى في الشفاه من الشهد

واطّرد في هذا النسق المعبر عن الوداد المحض والشوق الطافح، وبلوغ الشعر في جودته الى هذا الحد مما ينبه على رفعة منزلة ابن خلدون في نفس الوزير ابن زمرك ، اذ الشاعر وان كان مفلقا لا يطيل نفس الشعر ويرتقي في ابداعه الى هذا المظهر الا عن داعية تزعج قريحته وتأخذ بمجامع عنايته . وليست الداعية في هذا المقام سوى الاعجاب بكمال ابن خلدون والحنين الى حدائق آدابه الزاهرة

وبعد عودته الى القاهرة تقلد خطة القضاء مرة ثانية ثم عزل عنها ، وقد تولاها مراراً وبلغت ولايته لها ثم تخليه عنها منذ هبط مصر الى أن توفي نحو ست مرات

ابن خلدون والطاغية تيمورلنك

وكان الملك الناصر فرج يسلك في رعايته والاقبال عليه بوجه البر والانعام مسلك أبيه الملك الظاهر ، واستصحبه في خروجه الى الشام أيام الفتنة التترية . فكان ابن خلدون ممن وقعوا في الاسر . ثم غشي مجلس تيمورلنك في طائفة من الاعيان والقضاة ومكنه دهاؤه وبراعته في فن السياسة من افتتاح باب المخاطبة

والدخول معه في حديث اصاب مواقع هواه وأخذ بمجامع لبه حتى أحرز لديه مكانة الرعاية والاكرام وحمله الاعجاب بسمو مداركه وكياسة منطقه على اصطفائه لنفسه والانقلاب به الى مقر ملكه ليكون شهابا ثاقباً في سماء دولته ودرة وضاءة في سلك علمائه

ولم تطب نفس ابن خلدون لان يحط في اهواء هذا الطاغية ويتطوح في مجاراته ان يدخل في شيعته ويعمل تحت لوائه وتلطف في مخادعته باستئذانه في العود الى مصر ليجمع أمره ويضم اليه أهله و كتبه فنفذت الخدعة وبلغ أمنيته ، فعاد الى القاهرة ومد بها طنب الاقامة الى أن أدركه أجله وهو في منصب القضاء لاربع بقين من رمضان سنة ٨٠٨ ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر . وقبره غير معروف شان من يوافيه الحمام في دار غربة أو يقبره قوم كسدت لديهم بضاعته الغالية وكلت أبصارهم دون الوصول الى مراميه السامية

اخلاق ابن خلدون

يمكن للناظر فيما اقتبسناه من سيرة ابن خلدون أن يشهد له ببعض خصال سامية كعلو الهمة ورقة الحاشية وقلة المبالاة باقتحام المصاعب والاخطار . وقد وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتاب الاحاطة ببعض أخلاق شريفة اذ قال : هو حسن الخلق جم الفضائل ظاهر الحياء وقور المجلس عالى الهمة عزوف عن الضيم صعب المقادة قوي الجأش طامح لقنن الرياسة جواد حسن العشرة عاكف على رعي خلال الاصالة . ووصفه الوزير أبو عبدالله بن زمرك فى قصيدته المومأ اليها آنفا بشدة الحياء اذ قال :

يقابلنى منك الصباح بوجنة حكى شفقا فيه الحياء الذى تبدي

وبحسن الخلق اذ قال :

لقيتك في غرب وأنت رئيسه وبابك للاعلام مجتمع الوفد
فآنستَ حتى ماشكوت بغربة وواليت حتى لم أجد مضض الفقد
وعدت لقطري شاكراً مابلوته من الخلق المحمود والحسب العدّ

وقد أثنى عليه الاستاذ ابراهيم الباعونى الشامى وكانت بينهما مودة وصحبة ووصفه بعلو الهمة

وأومأ ابن الخطيب الى مغمز فى خلقه وهو بعده عن حسن التأنى وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الادراك ، وجعل هذا هو العلة في تحامل رجال الدولة عليه وانطلاق السنتهم في السعاية به لدى السلطان

ولمزه ابن حجر في كتاب « رفع الاصر » بخلق الكبر ، والازدراء بمقام غيره . وذكر فى شواهد هذا ان القضاة دخلوا للسلام عليه حين تولى منصب القضاء فلم يقم لاحد منهم واعتذر لمن عاتبه على ذلك . ومن تقصى أخبار النوابغ من أهل العلم والادب وجد أكثرهم يتطوح فى الاحتفاظ بالمظهر اللائق بعظمته الى الحال الذى يعده علم الاخلاق في قبيل الكبر والخيلاء

وقذفه ابن حجر بخلق الفظاظة وجفاء الطبع أيام كان قاضيا ، وحكى عنه انه كان يعزر الخصوم بالصفع ـ ويسميه الزج ـ فاذا غضب على انسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته . وتجاوز ابن حجر فى التشنيع عليه حتى رماه بارتكاب مالايحل لنا الادب الجميل ايراده في هذه المحاضرة فالى الله ايابهما وعليه حسابهما . ومن قرأ ما كتبه ابن حجر في ترجمة ابن خلدون وجدها منسوجة على قصد الحط من شأنه وكتم شيء من فضله ، فلا يبعد أن يدخل في عبارته غلو أو يتساهل فى النقل عمن كان بينه وبين المترجم له منافسة وتحاسد

مكانته فى العلم

أنبتت المعاهد العلمية الاسلامية من فحول العلماء رجالا لا تحيط بهم أقلام الحاسبين ، ولكن الرجال الذين يتسنمون فى العلم الذروة القصوى وتتفجر قرائحهم بمدارك فائقة فيخرجوها للناس في أسلوبها الحكيم ليسوا بكثير ، ومن هذه الطائفة العزيزة المثال أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون

كان بعيد الشأو في العلوم الشرعية والعربية ، خبيراً بالعلوم النظرية ، ضليعاً في الفنون الادبية ، ويشهد له بالرسوخ في العلم الكتب التى درسها مثل تهذيب البرادعي فى الفقه ، ومختصرى ابن الحاجب الاصلي والفرعي ، وكتاب الموطأ وصحيح مسلم وغيرهما من الامهات في علم الحديث ، وكتاب التسهيل لابن مالك في النحو

وأخذ العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية عن أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الابلى

وحسبكم شاهداً على تقدمه في هذه العلوم النقلية والعقلية مقدمة تاريخه التى أمتع فيها البحث عن حقائق هذه العلوم وفلسفتها على طرز لا يتكره الا من مارسها على بينة من أمرها وتوغل في احشائها

وأضاف الى ثقافة الفكر والتبريز في الفهم قوة الحفظ فكان

يحفظ القرآن الكريم والمعلقات وديوان الحماسة وشعر حبيب وقطعة من شعر المتنبي وسقط الزند وطائفة من أشعار كتاب الاغاني وغير ذلك من المنظومات العلمية

ابن خلدون والحافظ ابن حجر

قصد الشيخ ابن حجر الحط من شانه في العلم فقال فى « رفع الاصر »: وقد ذكره ابن الخطيب فى تاريخ غرناطة ولم يصفه بعلم وانما ذكر له تصانيف في الأدب وشيئاً من نظمه. وقد نقل صاحب نفح الطيب ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون في كتاب الاحاطة وهي تتضمن وصفه بالعلم حيث قال: متقدم في فنون عقلية ونقلية متعدد المزايا سديد البحث كثير الحفظ صحيح التصور

وقال ابن حجر: وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن بن أبي بكر يبالغ في الغض منه فلما سألته عن سبب ذلك ذكر لى أنه بلغه أنه ذكر الحسين بن على فى تاريخه فقال: قتل بسيف جده. قال ابن حجر: ولم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن، وكأنه ذكرها في النسخة التى رجع عنها

والعجب من الحافظ أبى الحسن حين يغض من مقام ابن خلدون لبلاغ مزور عنه، ثم من الحافظ ابن حجر حين ينفي ذلك

من تاريخه ويرجو أن يكون ذكره في النسخة التي رجع عنها .
والحقيقة أن ابن خلدون أورد ذلك في الفصل الذي عقده في ولاية العهد من المقدمة عازيا له الى القاضى أبي بكر بن العربي المالكي ومتعقباً له بالرد ونصه :

« وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال فى كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه : ان الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حمله عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل ، ومن أعدل من الحسين في زمانه في امامته وعدالته فى قتال اهل الآراء »

ومن مثل هذا يستدل على أن بعض الطاعنين على ذوي الآراء الاصلاحية قد يؤتون من عدم اطلاعهم على نفس مقالاتهم واستيفاء النظر في مؤلفاتهم

ثم قال ابن حجر مستشهداً على ما يدعى من ضعف مكانة ابن خلدون العلمية :

« حتى ان ابن عرفة لما قدم الى الحج قال : كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما بلغنا أن ابن خلدون ولي القضاء عددناه بالضد من ذلك »

غير بعيد صدور هذه المقالة من الشيخ ابن عرفة فان ابن خلدون لم يكن مملوء الحافظة بتفاصيل علم الفقه بحيث يكون اخصائياً في أحكام نوازله الجزئية وهذا هو المنظور اليه في أهلية القضاء لذلك العهد . أما أن يكون الرجل مكيناً في علم الاصول قاتلا قواعد الفقه خبرة ذا حذق فى صناعة تطبيق القواعد على ما يعرض من الوقائع ـ وهي المرتبة التى لا يقصر عنها ابن خلدون فيما نعتقد ـ فلهم أن ينفوا عنه أهلية القضاء ويطرحوه من حساب من يتقلدها بحق

ثم ان البون الشاسع الذي كان بين مسلكى الشيخ ابن عرفة وابن خلدون فى العلم يقتضى أن يكون بينهما من المنافسة ما لا يمنع أحدهما من القدح فى مكانة صاحبه ، وقد كان بينهما فى تونس مجافاة وادعى ابن خلدون أن لابن عرفة اصبعا فى السعايات التى بلوه بها لدى صاحب الدولة التونسية

﴿مؤلفاته﴾

أتى ابن الخطيب فى كتاب الاحاطة على بعض مؤلفات ابن خلدون فقال : شرح البردة شرحا بديعا دل به على انفساح ذرعه وتفنن أدراكه وغزارة حفظه ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد،

وعلق للسلطان ـ يعنى ابن الاحمر ـ أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الامام فخر الدين الرازى وألف كتاباً فى الحساب ، وشرع فى هذه الايام فى شرح الرجز الصادر عنى في أصول الفقه بشيء لاغاية فوقه في الكمال . وقال صاحب نفح الطيب بعد نقل ما جاء في الاحاطة من التعريف بابن خلدون : هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادىء أمره وأوسطه فكيف لو رأى تاريخه الكبير. ومما قاله المقريزي في وصف مقدمة هذا التاريخ : وانه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ان هي الا زبدة المعارف والعلوم وبهجة العقول السليمة والفهوم . توقف على كنه الاشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والانباء . وتعبر عن حال الوجود ، وتنبيء على أصل كل موجود . بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف من الماء مر به النسيم. ورام الشيخ ابن حجر ان يبخس كل أثر له حتى هذه المقدمة فقال في كتاب رفع الاصر بعد حكاية كلام المقريزي : وما وصفه به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية فمسلم. وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الامر كما قال الا في بعض دون بعض ، الا ان البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

وقد نُقلت هذه المقدمة الى لغات اخرى من تركية وايطالية

وفرنسية فكانت أحد الآثار العربية التي شهد بها الغربيون كيف يرتقي الفكر الناشيء في معاهد العلوم الاسلامية حتى يتسنى له أن يبحث في نظم الاجتماع ، وطرق الاصلاح ، على وجه بديع وأسلوب حكيم

ومتى صح أن النابغة لا يبدع في فن من فنون النظار ويطيل فيه النفَس الى الامد الاقصى إلا أن يتقدمه سلف يكون كواضع الاساس أو يحظى بصحبة من ينسج في البحث والمحاورة على منوال ذلك الفن فانا لم نر من الرجال الذين لقيهم ابن خلدون من يصح أن يكون مساعداً له على هـذا المسلك الفلسفي الاجتماعي غير لسان الدين ابن الخطيب . ولهذا كان ابن خلدون ينوّه بشأنه ويشيد بذكره اينما حل . قال الشيخ ابراهيم الباعونى الشأمي ـ فيما رآه صاحب نفح الطيب بخطه ـ : وكان (يعني ابن خلدون) يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الاسماع ، وينعقد على استحسانه الاجماع ، وتتقاصر عن ادراكه الاطماع

﴿ شعره ﴾

يعدّ ابن خلدون في قبيل الشعراء المجيدين ، ولكن انكبابه على مدارسة العلوم وقلة غدوّ قريحته ورواحها على النظم عاقه عن

أن يبلغ في اتقان نسجه والابداع في فنون التخيل مبلغ المشهود لهم بالتفوق في هذه الصناعة

وقد اعترف هو نفسه بما يجده من استصعاب الشعر عليه وُبعد مأخذه منه عند ما يحاول نظمه . قال في مقدمة تاريخه : ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الاحمر ــ وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة ــ فقلت له : أجد استصعابا عليّ في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وان كان محفوظي قليلا ، وانما أُتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الاشعار العلمية والقوانين التأليفية . وعدَّدَ جملة من محفوظاته ثم قال : فامتلأ حفظي من ذلك ، وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب ، فعاق القريحة عن بلوغها . فنظر اليّ ساعة مُعجباً ثم قال : لله أنت ! وهل يقول هذا الا مثلك !

ولصفاء فطرته وسلامة ذوقه قد يدرك شعره مع تلك العلة التي أومأ اليها غاية بعيدة فى الاجادة . ومن مُثُله الرائقة قصيدته التي انشدها سلطان المغرب ليلة الميلاد النبوي عام ٧٦٣ وافتتحها بقوله :

أسرفنَ في هجري وفي تعذيبي   واطلنَ موقف عَبرتي ونحيبي
وابين يوم البين ساعة وقفة   لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

ومنها :

يا سائق الاظعان تعتسف الفلا   وتواصل الإِسآد بالتأويب
متجافيا عن رحل كل مذلل   نشوان من أينٍ ومس لغوب
تتجاذب النفحات فضلَ ردائه   في ملتقاها من صبا وجنوب
ان هام من ظمأ الصبابة صحبهُ   نهلوا بمورد دمعه المسكوب
أو تعترض مسراهم سدف الدجى   صدعوا الدجى بغرامه المشبوب
هلا عطفت صدورهن الى التي   فيها لبانة أعين وقلوب
فتؤمُّ من اكناف يثرب مأمنا   يكفيك ما تخشاه من تثريب
حيث النبوة آيها مجلوة   تتلو من الآثار كل غريب

ومن أجود شعره وأعلاه مطلعاً في البلاغة قوله من قصيدة يهنيء بها أبا حمو بعيد الفطر :

هذي الديار فحيهن صباحا   وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الاطلال ان لم تروها   عبرات عينك واكفاً ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقا   أن لا يرين مع البعاد شحاحا
ايه على الحي الجميع وربما   طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

وتعرض الشيخ ابن حجر لشعر ابن خلدون وقال : انه لم يكن ماهرا في النظم وكان يبالغ في كتمانه مع انه كان جيداً لنقد الشعر . وعدم مهارته في الشعر مسلم على معنى انه لم يصل الى درجة من أفرغوا جهدهم في هـذه الصناعة وأصبحوا لا ترى تراجمهم الا في طبقات الشعراء . وقد أريناك من شعره مثلا يشهد بان له قوة شاعرية فطرية ، وهو المثل الاعلى لشعر من انصرف بهمته الى التضلع من العلوم النقلية والنظرية ثم مد يده الى الشعر على وجه التحلي بفن من فنون الادب الجميلة

***

مُثل من فلسفته الاجتماعية

لابن خلدون في الاجتماع والسياسة آراء سامية استمدها من مطالعاته الواسعة في التاريخ ومشاهداته أزمان الرحلة اذ تقلب في امم ودخل في أحشاء دول . ولنسق اليكم أمثلة من فلسفته الاجتماعية التى لها مساس بمشروع جمعية أدبية كجمعية تعاون جاليات افريقية الشمالية :

المغلوب مولع بتقليد الغالب

يقول ابن خلدون ان المغلوب « مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » وعلل هذا بان النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو بما تغالط به نفسها من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب . وهذه نظرية صحيحة وعلتها ظاهرة وهي مطردة في الاقوام الجاهلة والشعوب التى يلقى حبلها على غاربها فتأخذ في تقليد الغالب والتشبه به فى الشعار والعادات وتفرط في ذلك حتى تندمج في بنى جنسه وتفنى في قبيل عنصريته

فجدير بزعماء الشرق ودعاة اصلاحه اليوم ألا يدعوا النشء منهمكا في تقليد الامم الغربية ، ويحق عليهم أن ينعموا النظر في أحوالها ومظاهر مدنيتها ، ويميزوا بين ما كان من أسباب رقي حالتها الاجتماعيـة وانبساط يدها الى القبض علي أزمة السياسة فى الشرق ، فيحرضوا الشرقيين علي اقتباسه واضافتـه الى وسائل حضارتهم ، وما كان من الاوضاع المنكرة أو أنه كان ناشئاً عن عادة ولدتها البيئة الخاصة ضربوا عنه صفحا وأنذروا الشرق عاقبة الاقتداء به

وفحص أحوال تلك الامم وتمييز طيبها من خبيثها يحتاج الى نظر حكيم وذوق سليم فقد يجد الناظر ماقد يكون نافعا فى أوطانهم ولكن عمله في بلادنا اليوم ضرر محض . ومن أمثلة هذا اضراب التلاميذ عن الدروس احتجاجا على قضية سياسية فهذا النوع من الاضراب قد يلتجىء اليه تلاميذ دولة مستقلة حريصة على ترقيتهم في العلوم والفنون فيكون نافعا لهم وذريعة لنجاح مطالبهم، ولكن الدولة الاجنبية لا يسوءها ان ينقطع ابناؤنا عن التعلم ليالى واياما بل يرتاح ضميرها الى أن تغلق المدارس احقابا حتى يتسنى لها ان تسوقهم كالانعام الى حيث تشاء

الامة المغلوبة يسرع اليها الفناء

يقول ابن خلدون « ان الامة اذا غُلبت وصارت فى ملك غيرها اسرع اليها الفناء » وجعل العلة في هذا مايحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة اسواها فيقصر الامل ويضعف التناسل ، والاعتماد انما هو عن جدة الامل ومايحدث عنه من النشاط في القوة الحيوانية

وهذه النظرية حادثة وعلتها معقولة فيتحتم على زعماء الشعوب المغلوبة للاجنبي ان يعالجوا هذا الداء القاتل للامم الجاهلة بما يبثونه فيها

من أمل الخلاص ويضربوا لها الامثال بالامم التي تخلصت من سلطة الغريب مثل اليونان وبلغاريا ورومانيا وامريكا ويعلموها أن وسيلة النجاة منافسة الغالب في اسباب القوة من المال والعلم والاتحاد ، ويربوها على العظمة واباءة الضيم واستصغار العظائم فانها تعود الى حياة وقوة تصارع بها حاكمها الغاصب وان كانت فئة قليلة وبلغت جنود خصمها من الكثرة مالا يخطر على البال

لاتحقرن صغيراً في مخاصمة ان الذبابة أدمت مقلة الاسد

العرب والسياسة

عقد ابن خلدون في مقدمة تاريخه فصلا ذهب فيه الى أن العرب أبعد الامم عن سياسة الملك . وتدور هذه المقالة على ألسنة بعض من يريد الحط من شأن العرب ولا سيما الاعاجم الذين يريدون استعمار بلادهم وادخالهم تحت سيطرتهم ويسوقونها كالشاهد على أن العرب لا يصلحون لان يديروا سياستهم بيد مستقلة . وينقلها بعض العرب أو أنصارهم فيرمى ابن خلدون بسفه الرأي فى هذه القضية ويحكم على تخطئته بحجة سداد نظرهم فى السياسة واتساع فتوحاتهم أيام الخلفاء الراشدين ومن اقتفى أثرهم من دهاة الامراء وأبطال الرجال.

والتحقيق أن ابن خلدون انما يقصد العرب الذين يعيشون بالبادية وقبل ان يخرجوا من ظلمات جاهليتهم الى الاهتداء بمعالم الاسلام . وعباراته صريحة فى هذا الصدد . ومما قال فى هذا القصد «وانما يصيرون الى سياسة الملك بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية » ثم قال « واعتبر ذلك بدولتهم فى الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم »

خرجتُ يوما من برلين على سكة الحديد الى بعض نواحيها وكان في رفقتى اثنان مع مستشرقى الالمان . وبعد قليل أقبل عليَّ أحدهما وقال لى : أليس هكذا يقول ابن خلدون : ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك ؟ فقلت له انما يريد العرب فى عصر جاهليتهم وأما بعد أن تحلوا بهدى الاسلام فقد أصبحوا كغيرهم من الامم: يجيدون النظر في السياسة ، ويديرون زمامها على بينة . فلاح على وجهه الامتعاض من هذا الجواب . وليست المانيا أقل شرَهاً وحرصا على استعباد الشعوب الشرقية من بقية دول الاستعمار

ويوضح ما قاله ابن خلدون من قلة خبرة العرب ايام جاهليتهم بمذاهب السياسة انهم كانوا مغلوبين لطبيعتين لاينتظم معهما امر

الملك وادارة شئون الجماعة :

احداهما ـ الانتصار لمثل الجار والقريب والصاحب والحليف وان كان ظالما . وكانوا يرون هذه الطبيعة من مقتضيات صحة العهد وعزة الجانب . والسياسة انما تقوم على قاعدة المساواة ، وحماية الحقوق من ايدى المعتدين عليها ، لافرق بين بعيد وقريب ، وعدو وحبيب . ويعتبر هـذا بالحكومات الاجنبية فانك تجدها تعبث بقاعدة المساواة في البلاد المحتلة فتستخف بحقوق الوطنيين وترفع أبناء جنسها عليهم درجات ، وهذا أول الملل التى تجعل سياستها منكرة ووطأتها لاتطاق

ثانيتهما ـ المسارعة الى مؤاخذة المسيء والانتقام منه بدافع طبيعة اباية الضيم ، والسياسة تقضى باحتمال بعض الاذى والاغضاء عن كثير من الهفوات . واقم الوزن بالقسط فى الحكومات السائدة فانك ترى الحكومة التى هي اطيش حلما واخف يدا الى ارهاق من تسميهم مجرمين سياسيين فتستيقن انها اقصر عمرا وأن بغضها في قلب شعبها احر من جمر الغضا

وقد حارب الاسلام ها--ن الطبيعتين حتى اخرج من العرب موازين قسط وعدالة كعمر بن الخ--ب وعمر بن عبد العزيز رضى

الله عنهما ، وجبال حلم و اناة كمعاوية بن ابى سفيان والمأمون بن هارون الرشيد رحمهما الله

ايها السادة ،

هـذه كلمات في حياة الفيلسوف التونسى عبد الرحمن بن خلدون القيناها على مسامعكم رجاء ان ياخذ منها طلاب العلم بالازهر الشريف عبرة حتى ترى منهم اوطانهم بعد العودة امثال ابن خلدون في علمه وتفكيره ، وما ذلك على الله بعزيز

تنبيه

اتينا في اثناء تحرير هذه المحاضرة بجمل مفصلة لبعض ما اقتضى الوقت المحدود للاحتفال القاءه بعبارات وجيزة. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

فهرس

﴿حياة ابن خلدون﴾

صفحة

صفحة

